

الوضع الادبي في السودان

بقلم عمر ابراهيم

حاليا كانوا من ابداء الخريجين الذين اسهموا بنصيب وافر في تحرير البلاد من قبضة المستعمرين وارساء قواعد الحكم الديمقراطي . السى جانب اعمالهم الادبية الممتازة . فمثلا اسماعيل التنباني كان احد اعضاء (مؤتمر الخريجين) واحد اعضاء (الجمعية الادبية) بمبني .. وهو الان رئيس تحرير جريدة الرأي العام يساعده كبار الادباء امثال حسن نجيله الاديب والمؤرخ الذي اضاف للمكتبة العربية كتاب (ملامح من المجتمع السوداني) وهو كتاب قيم جمع بين الحقائق التاريخية والانشاء الادبي الرفيع - .. وما يقال عن رئيس تحرير الرأي العام يقال عن رئيس تحرير السودان الجديد .. والثورة .. والاخبار ومجلة الاذاعة السودانية السيد محمد مفتاح الفيتوري صاحب ديوان (اغاني افريقيا) . فتاريخ الصحافة في بلادنا تاريخ حافل .. ومحررو الصحف ادباء مجيدون اشتغلوا بالادب قبل الصحافة وانشأوا الجمعيات الادبية وراسلوا الادباء خارج الحدود وناقشوهم وناظروهم في شتى الموضوعات الادبية . ودفعوا الثمن غاليا في سبيل الادب والفكر والحرية ...

ونحن مع ايماننا بهذه الحقائق لا ننكر موقف الصحف في هذا العهد . فقد اصبحت تجارية تعنى بالاعلان اكثر من المواد الادبية وذلك لضيق صفحاتها .. وهذا ما ادى الى ركود الحياة الادبية .. وما ينشر في الصحف اليوم - على قلته - من ادب هو ادب فاتر لا يعبر عن الحياة بقدر ما يسير في موكب النفاق والتلق. وهنا محنة الادب في السودان. وفي حديثنا عن دور الصحف لا ننسى دور الجمعيات الادبية مثل جماعة الادب السوداني .. والندوة الادبية .. والجمعيات الادبية في جامعة الخرطوم . وجامعة القاهرة فرع الخرطوم .. وجماعة الادب المتجدد .. ونادي القصة .. فهذه الجمعيات تعمل جاهدة في دفع الحركة الادبية .. فقد قامت جماعة الادب السوداني بالاحتفال بذكرى شاعر الروح والوجدان التجاني يوسف بشير واخرجت كتابا يحتوي على دراسات قيمة عن هذا الشاعر العظيم .. وما زالت تحضر لهرجانات ادبية كبرى ودراسات حول الادب الشعبي السوداني .. كما قامت بالدعوة الى اتحاد يجمع الهيئات الادبية المختلفة في صف واحد.. فقد تكون هذا الاتحاد واحتفل قبل ايام بذكرى الشاعر السوداني الكبير محمد سعيد العباسي ..

وعلى كل حال فقد بدأت بوادر نهضة ادبية حديثة تظهر في أفق الحياة الادبية في السودان بالرغم من المضايقات التي يجدها الكتاب والادباء وهم يعانون آلام الكلمة ويتعذبون في سبيلها .. وختاما ارجو ان اكون قد وضعت النقط فوق الحروف ... مع تحياتي وتقديري للاداب والى اللقاء في فرصة سانحة وشكرا .

فؤاد الاطرش يروي

قصة

اسمهان

بقلم : قوميل لبيب

الثنى ٥٠٠ ق.ل.

تباع في عموم المكتبات

تحية طيبة وبعد ، طالعنا مجلة الآداب في عددها الثاني اول فبراير ١٩٦٣ بكلمة قيمة عن جمهوريتنا - السودان - رنر الكاتب فيها حول قضية الادب في السودان نلخصها في الآتي :

(الجرائد في السودان تعد على اصابع اليد تصحى بعضها لا كلها في خلال الاسبوع بصفحة واحدة تمنحها للخواطر الادبية التي تتلقاها من شهداء الكلمات (السجينة) .

محررو الصحف ليسوا من أهل الادب ولذلك يهتمون بقضية الادب. الانتاج الادبي ضحل .. والحياة الادبية مؤلة تحتاج الى جهود جبارة ..

عدم وجود مجلة أدبية في السودان له أثر كبير في ركود الحياة الادبية .. ولهذا لا بد من قيام مجلة ادبية وهي بداية فقط) .

ولي تعليق موجز حول هذه النقاط الهامة التي اثارها الكاتب .. فقلة الجرائد في السودان ترجع اولا واخيرا الى الوضع السياسي القائم في هذه الجمهورية البرامية الاطراف . فقد كانت هنالك عدة صحف تخصص صفحات اسبوعية للنتاج الادبي ، ومناقشة قضايا الادب المختلفة .. نذكر منها على سبيل المثال : جريدة الايام .. الصحانة .. الصراحة .. وجرائد الاحزاب الوطني الاتحادي .. الشعب الديمقراطي .. والاخوان .. والجهة .. وحزب الامة وله صحيفتان جريدة النيل والامة وقد كانت جريدة النيل من نشط الصحف السودانية في دفع الحركة الادبية ..

وكل هذه الصحف كانت تصدر يوميا . ولكل صحيفة صفحاتها الادبية الاسبوعية ... ومن المجلات مجلة النار .. وصوت المرأة .. والصبح الجديد .. وهنا ام درمان .. ومجلة القصة .. وقد اختفت جميع الصحف اليومية والمجلات بعد حركة انقلاب ١٧ نوفمبر ١٩٥٨ . وبقيت ثلاث صحف يومية هي الرأي العام .. والسودان الجديد .. والثورة ، وهي جريدة حكومية تصدرها وزارة الاستعلامات والعمل .. وهناك بعض صحف اسبوعية مثل جريدة الاخبار ومجلة واحدة هي مجلة الاذاعة السودانية وهي مجلة حكومية تصدرها وزارة الاستعلامات ..

وقد اسهم الادباء السودانيون بالكثير في تحرير هذه الصحف بنشر نتاجهم في مجالات الادب المختلفة ، وباشرافهم المباشر في تحرير الصفحات الادبية في الجرائد اليومية والاسبوعية .. اما اليوم فقد تغير الوضع في البلاد وقلت الصحف بعدما كانت تقارب العشرين من مجلة وجريدة يومية واسبوعية فاصبح بذلك مجال الصحف الموجودة حاليا لا يسع كل ما يقدمه الادباء والامل معقود الان في اتحاد الهيئات الادبية الوليدة .. فلعله يقدم على اصدار مجلة ادبية تعكس نشاط الادباء ولتكن هذه المجلة (بداية فقط) .

اما عن محرري الصحف فليس صحيحا انهم ليسوا من اهل الادب. كما ذكر الكاتب . فكل الصحف السودانية منذ قيامها كانت اهدافها الى جانب العمل السياسي - الذي تفرضه تلك الفترة الحرجة فترة الحكم الاستعماري - العناية بالنهضة الادبية والاخذ بيد ناشئة الادب والفكر في السودان .. وقد ظهرت على صفحاتها مناقشات ادبية في مستوى رفيع لا يقل عن مستوى ادباء القاهرة الذين كانوا على صلة دائمة بالادباء السودانيين . وقد تأثر الادباء السودانيون بالادب المصري في فترة طويلة من تاريخ السودان فالمناقشات التي تدور في القاهرة تعكسها الصحف السودانية في الخرطوم .. وجميع محرري الصحف كانوا الرواد الاوائل للنهضة الادبية والفكرية .. ولا نود ان نذكر تاريخ الصحافة والادب منذ عهد عرفات محمد عبدالله .. ومحمد عزيز الصديق واخيه عبدالله ومعاوية نور وغيرهم فالجمال لا يسع .. وموعدنا فسي فرصة اخرى - ويكفي ان نقول ان محرري الصحف الثلاث التي تصدر

ردان

بقلم حسين علي صعب

فقد قال : « واما القصيدة الرابعة (الى عام ١٩٦٣) لحسين صعب ، فاني اعتذر للشاعر عن انني لم استطع ان اتبين لها صورة كافية ، وانني لافيت صعوبة بالغة في قراءتها بسبب اضطراب وزنها هذا الاضطراب الكبير . ولعل الاضطراب حاصل من القلط في توزيع التفعيلات على الابيات ، فالشاعر يرص تفعيلته البحر الكامل « متفاعلاً » وراء بعضها دون توقف ويقسمها بين آخر البيت السابق واول البيت اللاحق على التوالي ... »

يستشف من ادعاء الناقد في حكمه على قصيدتي انه لم يفهم مضمونها ورموزها .. وتزول الدهشة اذا علمنا انه لم يحسن قراءتها.. لم يعرف اين ينتدى البيت واين ينتهي ، لذلك زعم بانها مضطربة الوزن . وانا اتحداه ان يستشهد ببيت واحد خارج عى اوزان الشعر العربية ، ما عدا بيتين ، المطبعة سبب الخطأ فيهما ، هما :

- ١ - السور حطم والشمس رأيتها ،
تنساب انهارا ،
وليل الموت أقمارا
على وجه التلال .
- ٢ - عادت الي عزيمتي ،
اعضائي ... ؟
نهضت كمارد قد نام أعواما طوال
والصواب :

- ١ - السور حطم والشمس رأيتها ،
تنساب انهارا ،
وليل الموت أقمارا ،
على وجه التلال .
- ٢ - عادت الي عزيمتي ،
اعضائي ألتمت ،
نهضت كمارد قد نام أعواما طوال .

فهو يظن ، ولست اعلم السبب بالضبط ، ربما لانه ليس من انصار الشعر الحر ، وبالتالي ليس من الذين يهتمون بقضاياها ، وبالتطورات التي لحقت ، ان البيت الواحد ينتهي عند الفاصله . وهذا ظن غريب لان الناقد لو قدر له ان يقرأ البيت مرات متتابعة لوجد انه ينتهي عند النقطة ويظل معناه مرتبطا بالبيت الذي يليه . واعتقد انه قرأه على الشكل الاتي :

أقبل عواصف تهدم الجدران عن وجهي ، بيت
تعري جهتي للشمس ، بيت

يلثم نورها شم الجبال . بيت
والحقيقة ان قارئاً واعياً يدرك ان هذه الاجزاء الاخذة براقب بعضها ، ليست سوى بيت واحد متوهج النغم ، ينتهي معناه عند لفظة (الجبال) الساكنة الاخر .

وللايضاح يجب ان يقرأ هكذا :

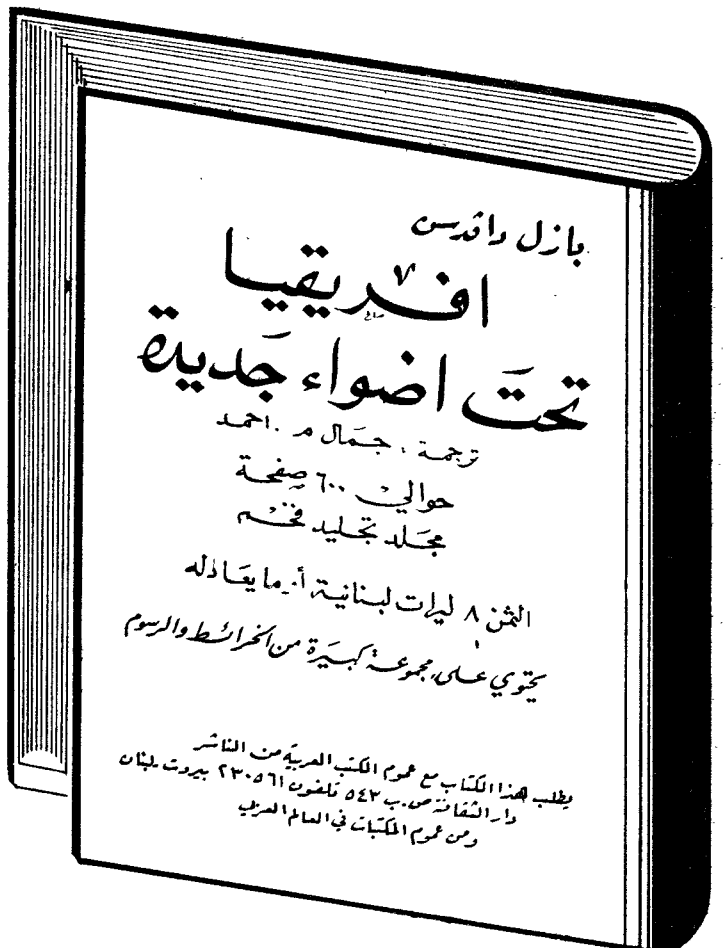
أقبل عواصف تهدم الجدران عن وجهي ، تعري جهتي للشمس ، يلثم نورها
شم الجبال .
مستفعلن- متفاعلاً- مستفعلن- مستفعلن- مستفعلن- متفاعلاً- مستفعلن- مستفعلن .

ولنفترض ان قصيدتي قطعة نثرية ، أفليس من واجب الناقد الكريم ان يشير ولو بكلمة الى موضوعها ، ولكنها طريقته في النقد ، بل مسرته الذي لا يفرض به الا الى دراسة العروض ، وكان القصيدة ليست شيئاً اخر سواه .

اما النظرة الثاقبة الشاملة الى القصيدة ، لتحيط بها من جميع نواحيها وابعادها ، كاشفة عن مواطن الجمال ومواضع الاسفاف والقبح فيها ، فلم نلمح لها اثرًا يذكر في المقال كله غير لمحات ضئيلة من اشارات عابرة ، تتصف بالتعميم . أي اننا نستطيع ان نشير بها الى اية قصيدة كانت كقوله عن قصيدة فاروق شوشة « هذه القصيدة اللطيفة العذبة الفنية بالمعاطفة والرومانتيك الملحن .. » أو قوله عن قصيدة حسن فتح

من التمسف ان نطلق احكامنا جزافا ، وفق ما تقتضيه اهوؤنا ، على الاعمال الادبية وخاصة الشعرية ، فنعمل على تهشيمها ان لم ترض ذوقنا ، وعلى الافاضة بالمديح ان هي تعرت لنا ، كاشفة عن ذاتها للمرة الاولى من قراءتها ، دون مشقة وجهد ، ونكتفي حينئذ بتوجيه النصح والارشاد ، من عل ، الى الذين لسوء حظهم ، ساقطهم الاددار لنحكم على نتاجهم الفني بالتشتر من غير ان نجس بحرارة الجهد الذي بذلوه حتى اخرجوا تجاربهم من حالة المعاناة الغائمة الى واقع التجسيد الواضح . لعل ما ذكرت سمة واضحة من سمات نقدنا الحديث . فالناقد ، عندما يتصدى لعمل فني ، يبدي رأيه فيه ، ينظر اليه من زاويته الخاصة لذلك يجيء تقييمه له ناقصاً وجزئياً .. منحصرًا في جانب واحد من جوانبه المتعددة التي تشكله .

وانا لا انكر ان مطلق قصيدة ، كعمل ادبي يراد نقده ، خالية من العيوب . ولكن الذي ارفضه بشدة هو ان يقف الناقد عند هذا العيب ، ويعمى عن اكتشاف الطبقات الفنية الاخرى الموجودة في تلك القصيدة . ويصبح الرفض حادا ، والمشكلة اكثر تعقيدا وانحرافا ، اذا لم يكلف الناقد نفسه ، او كلفها وعجز ، عناء البحث عن العيب والتأكد منه ، قبل التثبت به ، واخذة معولا لتهديم بنيان القصيدة وبشورة اجزائها لتظهر وكأنها شلو خدمت فيه نار الحياة .
دفعني الى هذا القول ما كتبه السيد جميل حسن حول قصيدتي (الى عام ١٩٦٣) المنشورة في عدد شباط من مجلة الاداب الفراء .



الباب « لؤلؤة عذراء » « لقد أراد الشاعر أن يستعمل الرمز فيها ، إلا أنه لم يكن بارعا في إخفاء الصنعة و اكساب الرمز صفة الإيحاء التي يمتناها . . » أما أين هو الرمز ، وما هي دلالاته ، وكيف أخفق الشاعر عندما أراد أن يجعله موحيا فلم يتعرض الناقد لهذا كله بل اكتفى بذكر الأخطاء العروضية . وكفى الله المؤمنين القتال .

- الرد الثاني -

لا أحاول في ردي هذا على كلمة السيد صبحي شحروني المنشورة في مجلة « الآداب » العدد الثاني ١٩٦٢ أن أبين الأخطاء الفادحة التي تصم الشعر الحديث ، والتي وجدها المناهضون لحركته ، نقرات يوجهون من خلالها الطعنات إليه ، وإنما ان اعترف اننا ، في مجالتنا المختلفه ، الاجتماعية والسياسية والفنية ما نزال نسير مدفوعين بالعاطفه لا نترك لعقولنا مجالا تتجلى فيه فعاليتها بحيث نشعر الاخرين بان ما نمسحه او نذمه ، هو ، في جوهره ، مستقل عن ذواتنا حري به ان يحترم او يزدري . فالسيد شحروني ، بدافع الصداقة ، والرابطة الادبية ، يقرر في دفاعه عن امين شنار اني استعملت ، من غير ان اشعر ، اسلوب الاستاذ جوزيف نجيم في كلمتي « حول الشعر الحديث » اي انني هاجمت الشعر الحديث بينما قصدت أن اذاع عنه . تأويل عجيب ، قادتة اليه عاطفته ، لما ذكرت في كلمتي التي ليس فيها سطر واحد يحمل غير معناه الخارجى . قلت : (واذا كانت هناك نماذج رديئة مثل - الوحش والمثذنة - على طيبة نيات اصحابها تفاجئنا في المجلات والصحف فلا بد من الاعتراف بان العجز واقع في الشعراء انفسهم لا في الشعر ، وبان اتخاذ وسيلة منها لمحاربة الشعر الحديث عمل يعيسد كل البعد عن الموضوعية والمنطقية) . واعود فأقول بارادة ووعي ، لا دون ان اشعر كما يدعي ، ان - الوحش والمثذنة - تمثل نموذجا رديئا ولا احاول دعم حكمي هذا بتحليل مقتضب لها ، لا اعتقادي انها هي ذاتها ، وبشرح السيد شحروني الذي زاد على الظن بله ، خير شاهد على ما ذهبت اليه . أما زعمه : « ليست قصيدة الشاعر امين شنار ولا الدفاع عنها موضوع هذه الكلمة ، وإنما هم هذه الكلمة ان تشير الى اننا نجيب على غيرنا اخطاء نقترها نحن . . . » فباطل يدحضه ما ورد في كلمته من مديح للشاعر وثناء على قصائده التي استشهد بمقاطع منها ، دون ان تقتضي ضرورة ما بذلك سوى انشغال الشاعر من الهوة التي قذفه اليها ، بشرحه لقصيدته - الوحش والمثذنة - شرحا يدعم رأبي فيها ،

وان جاء مستترا تحت قناع المثال على الطريقة الصالحة في اصدار الحكم على الاعمال الفنية . وارجو ان تكون هذه الأخطاء النحوية قد وقعت سهوا ، ولم ينتبه لها الكاتب : ان في القصيدة مخاطبا ، وليس مخاطب" - انه يتحمل في سبيل ذلك الصعاب ويصادف الاحوال لان جواذب وقيودا وليس وقيود" الى هذا الحد تجني الذاتية على فكرنا فتجملنا نقلب المفاهيم رأسا على عقب ، متذرعين بان هدفنا ، في الكتابة ، تقويم اتجاه غيرنا ، ليتبع الطريقة الفضلى التي ندعي باننا نسلكها بموضوعية ووعي ، محاولين اخفاء عمليات الزيف والتمويه ، باقنعة لا تلبث ان تصمحل وتتغفى تحت اضواء العقل الفاضحة . وهنا يصدق علينا قول ابي العلاء المعري :

ومما ادام الرءء تكذيب صادق على خيرة منا وتصديق كاذب

حسين علي صعب

بنت جبيل

حول تحليل « السمان والخريف »

بقلم صلاح عيسى

كتب الاستاذ رجاء النقاش في العدد الماضي من « الآداب » (عدد مارس ١٩٦٢) مقالا عن « السمان والخريف » رواية نجيب محفوظ الاخيرة .

وفي البداية أحب أن أبرز أهم العيوب التي تبرز للناقد في هذا المقال :

لقد لقي الكاتب في وجهنا بقضاياها واحكامه العامة دون تدليل « فالرحلة الاولى في أدب نجيب محفوظ ، والتي انتهت بظهور الثلاثية ، هي المرحلة التي التزم فيها نجيب الاتجاه الطبيعي » و « كان نجيب محفوظ بلا شك تلميذا نابغا من تلاميذ المدرسة الطبيعية » هذه بعض الاحكام العامة التي يطرحها رجاء ، وكأنها قضايا مفروغ منها ومتفق عليها ، دون ان يكلف نفسه مشقة التدليل العلمي على صحتها ، مكتفيا ببعض الحكايات عن فلوير وبلزاك وزولا !

لقد تناول رجاء جزئية من الرواية محاولا التدليل عليها وهي ان أزمة عيسى أزمة وجودية ، ولكنه فصلها فصلا مبشرا عن بقية الرواية ،

الاشتراكية والأدب

ومقالات أخرى

تأليف

الدكتور لويس عوض

دراسات معمقة عن النزعة الاشتراكية
كما تبدو في آثار اكبر الكتاب العالميين

الثنى ٣٥٠ ق.ل

صدر حديثا عن دار الآداب

وعن ظروفها التاريخية ، ومع تسليمنا بحق رجاء في أن يفصل جزئية ويحللها ، فان (عزل) هذه الجزئية وتناولها من خلال فراغ - هو ما لا نوافق عليه .

ولقد ناقض رجاء ناقض نفسه بنفسه ، فأورد الموقف الأخير من الرواية ، وهو موقف لا وجودي على الإطلاق ، وهو وحده كاف لهدم كل ما كتبه !

ان أزمة عيسى كما يصورها الكاتب هي :

١ - مشكلة الاحساس بالفربة ، وعدم الانتماء ، او الاحساس بان الانسان مطرود من هذا العالم فهو يعاني مأساة السقوط والخطيئة .

٢ - ان المعنى الوجودي لهذه الازمة يتضح في موقفين اولهما - حاجة عيسى الى مسكن ، والثاني انكار ائنته له !

٣ - ان احد الأدلة الهامة على وجودية الرواية استعمال التعبيرات الشائعة عند الوجوديين ، مثل المنفى ، والعيب ، والاحساس بأن الانسان « زائد عن الحاجة في هذا العالم » !

فاما الادعاء بان نجيب محفوظ هو من المدرسة الطبيعية فيبدو أنه ينطلق بدون تقدير للاحساس الفلسفي للطبيعية ، لقد ارتبطت الطبيعية في الفكر الفرنسي بموقف تاريخي معين ، فعند ظهورها في اواسط القرن الثامن عشر ، كانت فرنسا تعيش في تناقضات حادة ، نابليون الثالث قد انهار ومعه نظامه البرجوازي ، كوميون باريس أول حركة تقدمية قد انهار ، الاشتراكية العلمية تتسلل كجحافل النور ، وحفاظا على كيان الذين كانت لهم مصالح ظهرت حملة رجعية تعيد ترميم الحياة الرجعية باحدث الاساليب ، رجعية في السياسة ازدهر معها الفريق الملكي الاوتوقراطي وبدأ الهجوم على الثورة الفرنسية مثالية في الفلسفة ، طبيعية في الفن .

في الفلسفة بدأ ترميم المثالية التي كانت تنهت تحت أقسام الواقعية ، وسرق الفلاسفة المثاليون مصطلحات العلم ، فظهرت الوضعية على يد أوجست كونت لكي تقول : ان العلم والفلسفة يصفان الظواهر دون تفسيرها ، اننا ندرس الاشياء كما هي لا كما ينبغي ان تكون ، اننا لا نفهم التاريخ ، ولا المجتمع ، اننا نصف ما امامنا فقط !.. وبعبارة اكثر صراحة ان الأوضاع التي امامنا هي هكذا ، ولا نعرفها سوى هكذا ، ولا يمكن ان نغيرها لاننا لا نعرف قوانينها .. وانعكست الوضعية على الفن، فرأت أن دوره يقتصر على تجميع وتصنيف الظواهر المختلفة ، ومن هنا فان الفنان ينبغي ان يظل محايدا بازاء الاحداث ، وان يمسك عن حكمه عليها، وفي هذه الفترة كتب بلزاك وفلوبير وزولا، متأثرين بالعلم الوضعي نفسه ، الذي ابرزه اذ ذاك البيولوجيا ، فحظلت قصصهم بالفوتوغرافية، وبالتركيز على الجزئيات والقول بفكرة الورثة .. الخ .

الطبيعة اذن رجعية مستترة ، وان كانت في مجال الفن قد مهدت لظهور الواقعية الاشتراكية فذلك لان الفكر الفرنسي كان يفرق في الرومانسية حتى اذنيه ، فكان النزول الى أرض الواقع - وان كان بصورة رجعية - تمهيدا للنزول اليه بالفهم العلمي السليم ..

وعلى ضوء هذا العرض السريع للطبيعية ، هل يمكن أن نعتبر نجيب محفوظ « نلميذا نابغة من تلاميذ المدرسة الطبيعية » ؟ ان الدور العظيم الذي قام به نجيب محفوظ هو أنه قدم لنا المجتمع المصري من خلال رؤية تؤمن بالتطور ، وتحدد عوامله ، وقواه ، وتسير بها الى منتهاه ، ومن هنا كان التاريخ جزءا من مناخه الروائي ، لا لانه مؤرخ، بل لان التاريخ هو قالب الوجود الاجتماعي في لحظة معينة . وفي كل لحظة تاريخ ، استطاع نجيب محفوظ ان يقدم لنا ببراعة القوى المتصارعة التي تصنع الحركة نحو الامام ، وعوامل الجزر والمد من الداخل والخارج . وفي غياب أي فهم علمي للمجتمع المصري قام نجيب بدوره كفنان وعالم ومؤرخ في لحظة متمازجة كلية فاستطاع ان يقدم هذا المجتمع في رؤية صحيحة ، وقد التجأ للانماط لكي يبرز القوى المتصارعة مجعما ملامحها في نماذج مفردة، يكون سلوكها وأزمته ابرازا لسلوك أزمة القوى المتصارعة من أجل انطور . ان رؤية الواقع في تطوره هو الخط الكلي الذي يمكن ان نراه خلال ادب نجيب محفوظ، واذا كانت «الطبيعية» قد أثرت فيه من ناحية اهتمامه بالتفاصيل الدقيقة ، فهو يستخدم هذه التفاصيل كإطار للواقع الذي يصوره . ان التأثير هنا تأثر شكلي ، وليس تأثرا مضمونيا ! هذا هو المهم !

* *

ما هي الروايف التي تنبع منها أزمة عيسى الصباغ ، وما هي طبيعة الرحلة البطولية الخارقة البطولة التي قام بها لكي يحل تناقضاته الناتجة من موقف تاريخي معين ؟! وهل هي أزمة وجودية ؟! ان النظر لازمة عيسى ينبغي ان يكون من خلال رؤية كلية لشخصيته وتطورها ، لا من خلال جزئيات ، وكلمات مبتورة .

السمان والخريف رحلة مليئة بالبطولة الخيالية ، يقوم بها فرد ، لكي يحل تناقضاته الداخلية الناتجة من موقف حضاري معين ، هو لحظة تطور تاريخية هدمت كل الماضي ، وكل ما يحويه ، وكل من يرتبط به . عيسى فرد له أرضية ، وكيان ، وتاريخ ، وهو لا يغدق في وجهنا بكل تناقضاته وكأنه محكوم عليه بها ، وانما هو واحد من ابناء الطبقة الوسطى الصغيرة ، المرحوم والده « عاش ومات موظفا صغيرا مغمورا » (١) ، وهو - سنة ١٩٥٢ - في الثلاثين من عمره - أي انه احد مواليد ما بعد الثورة المصرية القومية ، وتاريخ حياته بعد ذلك هو تاريخ حياة الكثيرين من الذين شاركوا في الكفاح ضد الاستعمار ، لقد مرت به « فترة حية من نبض القلب ، هدير يخلد في الاسماع ، وهراوات الجنود كالصواريخ ، والحماس المهلك للانفس » (٢) كان عيسى وطنيا يؤمن بقضيته ، أعطاها نفسه ، ووهب لها حياته ، وتحمل في سبيل ذلك الكثير ، ثم جاءت لحظات « الاغراء الموهن للهمم ، وزحف الفئور المرص »

ديوان وعبد بن علي الخزامي

جمعه رمتته

الدكتور محمد يوسف نجم

يطلب هذا الكتاب مع عموم الكتب العربية من الناشر
دار الثقافة ص ٤٣٥٤ تلفون ٢٣٠٥٦١ بيروت - لبنان
ومن مكتبة دار الثقافة - شارع رياض الصلح - بيروت
ومن مكتبة الجامعة - شارع ياس - تلفون ٢٩١٩١٥ - بيروت

ومن عموم المكتبات
في العالم العربي

فارتشى عيسى ، وتوسط مجرمين ، وزحف حتى وصل الى الدرجة الثانية وهو في الثلاثين من عمره ورشح للوزارة ، لقد بدأ بطيلاً . . وانتهى بالرصيد ٣٤١٢٣ بنك مصر . نحن اذن امام احد ابناء الطبقة البرجوازية الصغيرة ، طبقة اللامتنهي الخالدة ، حيث يسود المحتوى الاقتصادي غير الثابت ، وتصبح الخيوط التي تشد مصالح الناس فسي تجمع طبقي غير موجودة ، هنا يسود التذبذب والانهييار . . والضياع ، على ان عيسى قد ارتبط بقضية ، وفي الطريق لحلها سقط ، كما سقطت الطبقة التي قامت ثورة ١٩١٩ عندما لم تستطع ان تواجه الحلف المعادي الذي كان يقف لها بالرصاد حلف العداء من الملك وكبار ملاك الارض والانجليز .

..... ثم جاء « الزلزال دون نذير كاب » (٤) عندما قامت حركة ٢٢ يوليو ١٩٥٢ ، وتبين لعيسى « ان ذلك الماضي يتباور الآن في صدره فقاعة لن تلبث ان تنفجر ، وان وجهاً جديداً للحياة يسفر عن صفحاته رويدا رويدا ، حافلاً بالجدة والغربة ، وان بوسعه ان يتعرف على هذا الوجه لانه سبق له ان لمح هنا او هناك ، ولكن من أين لهذا الوجه ان يتعرف عليه هو داخل القاعة المنفجرة » (٥) ، ان الجديد الذي أتى ، شيء من في احلام عيسى ، ولكن المشكلة ، كيف يتعرف عليه هو داخل القاعة المنفجرة ، تلك القاعة التي قامت لتلتهم كل ما للماضي مسن أمجاد . وتنبه عيسى لان الزوبعة التي قامت « ستقتلع الجذور التسيي ثبته بارضه جنرا بعد جنر » (٦)

وهنا تتطور أزمة عيسى في احساس مبهم ، انه يتساءل « أين الابام الطاهرة أين ؟! اما الختام فهدياً محرمة ، وفساد ثم الضياع ، وانت على عتبة المناصب العالية الأودية الى كرسي الوزارة ، وكيف تعيش في دنيا من الناسين والمنجولين ، والشامتين ، وقد طويت الامجاد ، كان لم تكن ، ونشرت الاخطاء كالاعلام » (٧) هذه هي أزمة عيسى ، ان ماضيه الراسع ، قد نسسي ، وماضيه القدر ينتشر كالاعلام . .

لحظة تطور واثبة ، تقذف من فوق الارض صحباها . ان أزمة عيسى ، هي انه قد عاش احساسه بماضيه اكثر ممسا عاشه غيره ، كان يؤمن ان الجوانب الخيرة في هذا الماضي يجب ان تبقى . ولهذا رفض أن يتبع سبيل صديقه ابراهيم خيرت ، المناق ، الذي طلق الماضي ، والحاضر ، وسار بلا مبدأ ، هذا هو اللامتنهي الحقيقي . . ورفض ان يتصوف مثل سمير عبد الباقي الذي « هرب » هروباً حقيقياً عندما تصوف وارتبط بالفراغ او باللاشيء . اما عيسى فقد اختسار الهروب « داخل الواقع » لكي يمارس تناقضاته حتى يجد لها حلا . وكانت رحلة عيسى بعد ذلك هي رحلة مضيئة وشاققة لحل هذا التناقض الذي يعيشه ، تناقض بين ارتباطه بقضايا وطنه ، واحساسه بالهزيمة الشخصية ، وفي سبيل حل هذا التناقض من عيسى بمراحل متعددة ، بدأت بحيرة ضبابية يختلط فيها الجنس بالخمر ، ثم يمر بثلاث تجارب تساعده على حل تناقضاته ، تجربته مع ريري ، وتجربته مع العدوان وتجربته مع ابنته ، ثم يحل التناقض عندما يسقط الماضي خلال عملية نقد ، ونقد ذاتي قاسية ، ويرتبط عيسى بالمستقبل .

* *

ان مرحلة الحيرة تبدأ بادراك اللحظة التاريخية ادراكاً فردياً ، انه يتساءل « لماذا قدر عليه ان يحارب التاريخ في موكبه المتدفق منذ الازل » (٨) ، وهو يحاول « النفاذ الى بواطن الادميين المتلكئين في القهوة لغير ما سبب واضح ، وجرى في الماضي ملايين السنين بين الدهشة والارتياح ، فرأى شحاذاً واقفا وراءه ليرمقهم بنظرة مستعطفة ، وقد انقطع المطر فقال لاصحابه

– تصوروا ان هؤلاء الادميين انحدروا في الاصل من السمك –
– لكن الاسماك ما زالت تزحم المحيطات بملايين الملايين

فقال بيقين :

– وهذا هو سر مأساتنا الحقيقي » (٩)

ها هو يحس بمأساته ، انه واحد من السمك القديم ، ظن انه النهائي ، لكن الواقع يلطمه ، فيتساءل في حيرة ، ان الاسماك كلها ستتحول الى ادميين باستمرار ، وسيوجد دوما مأساة ضحايا لحظة التاريخ التي يظهر فيها من البحر اسماك ، تميت السمك القديم ! . . وبين كل لحظة واخرى ينظر الى امرأة بنهم جنسي ، او تنطلق منه ضحكة ذات شرارة جنسية .

انه يعيش بهذا الاحساس كرمز حقيقي لمأساته ، انه يهتف : « ألا لعنة الله على التاريخ » (١٠) ، وهو يرثي لضحايا التاريخ بقلب متأوه ، ويرى انه يتلقى على يافوخه انقراض العالم القديم السذي يتقوض (١١)

ومن خلال تجربته مع ريري ، يبدأ بنفي الواقع في التعبير عن وجوده في نفسه ، انه يقول « ان استقلالها الحقيقي هو أن تتحرر من الحاجة الي أنا وامثالي » (١٢) ، واذا كان ينهي هذه التجربة بموقف هروبي ، جبان ، الا ان هذا الانتهاء بداية لرحلة جديدة ، تزيد من احساسه الحاد بالجوانب المظلمة في حياته ، في القاهرة يراقص فتاة ايطالية فيتأثر بجملها ، ويحزن لامتهانه « ولكنه قال ان فيما تميته غير الجمال ، تلقى نفس المصير ، كالحرية ، والادمية ، وحتى الدين يتاجر به اناس بلا حياء ، انها في الحقيقة مأساة واحدة وهو نفسه وقع في نفس العبت في ماضيه فهضم الوانا من الفساد وشارك فيه ، ولا يزال رصيده في البنك شاهداً على ذلك ، فلم لا يسود النقاء ، وما الذي حال دون ذلك طوال القرون ، وهل يوجد في مكان ما من الارض انسان يعيش بلا خوف ، ولا رذائل » (١٣)

هنا تتسلسل بذور جديدة الى فكر عيسى ، ويبدأ اتجاه جديد تجاه تجربة جديدة : الزواج « لقد راوده حلم بتغيير جذري في حياته » (١٤) ان تجربة الزواج تنكشف عن اشياء جديدة . سأله سمير : « – كيف وجدت الزواج ؟ – عال ولكن . .

– ولكن أشك في أن انسانا يهضمه بلا عمل ، وبلا اطفال » (١٥) ان اتجاهه الى الارتباط بالعوامل الايجابية يتحدد تدريجياً !! بعد كل تجربة ، ان التجربة الثالثة هي تجربة عامة ، تجربة الوجود الوطني كله ، العدوان الثلاثي « انفعل بالنبا لحد الهديان ودار رأسه بالافكار ، حتى أصابه الدوار ، غضب الغضب الجديرة بالوطني القديم ، الذي تعذب بالرغم من تولته من أجل مصر ، وتشبثت قدمه بحافة الهاوية التسيي تهدد وطنه بالضياع ، وأبعد عن فكرة الثورة ومصيرها ليحتفظ بمشاعره في أوج انفعالها » (١٦) انه يعاني لحظة التآزم التي يرتفع فيها التناقض الى مرحلة التطاحن بفعل تجربة جديدة ، وحية ، وثرية ، انه يرى ان من واجبه « ان ينصر شطره المتكلم على شطره الصامت ، وان يحترق المهاجمين بلا حياء اعرابا عن احتقاره لشطره الصامت ، ماذا أدى بنا الى هذه الحالة المحزنة حقا ؟! الا من سبيل الى نسيان الهزائم الشخصية » (١٧)

في فترة الفترات والاضلام أتاح له البقاء في المنزل « فرصة اكبر لتأمل الموقف وللتشبع بالخطر ، والحنين المنصر ، واسكات شطره الخفي ، فتحرك في أعماقه نبع للحماس ، واشك ان يدفعه للتضحية . وعند تسكعه نهارة قرأ في مئات الوجوه مشاعر كالتي تشده الى الحياة رغم الفبار والفناء » (١٨) من خلال هذه التجربة الموضوعية الآتية من الخارج يبدأ عيسى في الارتباط بالحاضر ، انه يخطو الخطوة النهائية للانطلاق . . وبعد المعركة بدأ عيسى في النظر الى موقفه في محاولة تغير شامل ومعالجة تناقضاته بعوي حقيقي « لكل انسان عمل وهو بلا عمل ، ولكل

(٩) ص ٦٩ (١٠) ص ٩٢ (١١) ص ٩٤ ، ٩٥
(١٢) ص ١٦ (١٣) ص ١٣٠ (١٤) ص ١٣٣
(١٥) ص ١٤٤ (١٦) ص ١٤٤ (١٧) ص ١٤٩ (١٨) ص ١٥٩

(٤) ص ٤٨ (٥) ص (٦) ص ٤٨
(٧) ص ٥٨ (٨) ص ٦٨

زوج ذرية ، وهو بلا ذرية ، ولكل مواطن مستقر وهو منفي في وطنه ، وماذا بعد الدورات الهروبية المعتادة ؟ (١٩) ان يتأمل وجوده تأملا واعيا .. ويفقد ماضيه بقسوة ، ويشجب حاضره الانهزامي . انه يتساءل في انكار .. كيف تلوث الوفد ، هرب كلا ثم كلا ، كيف انهزم بعد ١٩٣٦ ، انه يرفض القول بأنه كان خير الجميع حتى النهاية ، لان النسبية ليست هي المقياس ، ولانه لم يكن كذلك فعلا بعدما ارتدى في احضان حلفه المعادي ، الملاك الكبار للارض والسراي والانجليز .

وعندما علم بأن رجال حزبه القديم ذهبوا لكي يفاوضوا في التسليم خلال العدوان الثلاثي وثبت الى ذهنه صورة المندوب السامي ، انه يراهم اعداء ، انهم يتهاونون ، ان الماضي يسقط ولكنه ما زال هو وغيره بلا دور ، « السياسة تصنع لهم وهم كالثغوات (٢٠) وبقسوة يفقد سلوكه ويرى نفسه « يرتبط بامرأة ليسرقها لا ليحبها » (١) ويتساءل « الا توجد افكار من نوع آخر تفتح الصدر للحياة » (٢١)

وتأتي آخر تجربة لكي تنهي موقفه ، انها تجربة اكتشاف ان له ابنة ، هذه هي نقطة نصره العظيم ، انطلاق تحقيق وجوده مواجهة صريحة مع نفسه .

« لقد اعتاد ان يهرب مرات في اليوم الواحد ، ولكنه لن يهرب امام هذه الحقيقة الجديدة التي اجتاحت مستنقع حياته الراكدة فتفجر عن ينبوع حارة لعلها دعوة اخيرة يأسه الى حياة ذات معنى في حياة أعباء ان يجد لها معنى ، لن يهرب ، وليس في مقدوره ان يهرب وسيواجه الحقيقة بوجه متحد وبأي ثمن ، أجل بأي ثمن ، وسيرحب بذلك أيما ترحيب » (٢٢) ان ابنته هي رمز المستقبل الجديد ، ويبدأ

(١٩) ص (٢٠) ص ١٧٧ (٢١) ص ١٩٢
(٢٢) ص ١٩٢

في العمل الايجابي للارتباط فتتهنق به .
« لست أبا .. أنت جبان .. لا يمكن أن تكون أبا » (٢٣)
انه جبان لانه انفلق على ذاته ، أكله الماضي ، لم يرتبط بالابن ، بالمستقبل .

ان الابنة تتحول من كيان الى رمز .
« هذه الصغيرة شاهد على سخف كثير من المخاوف ، شاهد للطبيعة عندما تضرب لنا المثل على امكان التغلب على المأساة ، الان تستطيع ان تخلق من احزانك وخسائرنا وهزائمك نصرا ولو بسيطاً ، وما هو بالنادر ولا بالجديد ، فهذا البحر الذي احتفظ بصورته ملايين السنين قد شهد امثلة على ذلك لا حصر لها » (٢٤) .

هنا يحل عيسى تناقضاته من خلال تجاربه الملتحمة مع الحياة والواقع ، ويبلغ وعي عيسى بقصيته الشخصية والعامة القمة ، ثم يأتي المستقبل ووردته الحراء بين اصبعيه ، فيسير عيسى في طريقه .. سائرا مع التطور الى متناه !

هذا هو عيسى ، بطل يحل أزمته وتناقضاتها بتفاعل مع الحياة من خلال تجاربه شخصية ، انه لا يهرب في التصوف مثل سمير ، ولا يتقهقر مثل ابراهيم خيرت ، ولا يخون مثل السلهوبي ، كل أزمته لحظة تاريخ!

* *

ان « السمان والخريف » ليست كما يقول رجاء « قصة الانسان الذي أكل من التفاحة المحرمة ، قصة الانسان الضائع الذي وقع في الخطيئة واسلمته الخطيئة لعذاب كبير » عيسى ليس سيزيف ، ليست وليدة الالهة الفاضلة ، ليست حتمية ، لم تلق في وجوهنا بكل أزماتها ، وانما القيت ومعها تاريخها ، انها ازمة لحظة ، وهي تتطور بوعي نحو الارتباط بالقيم الرائعة للحياة ، وهي تشجب في قسوة أليمسة هذا الانهيار ، والتفسخ المهترئ . انها لا تدافع عن الصبث ، وهي ايضا ليست نوعا من ابقاء التناقضات في حالة توازن ، انها تبدأ بتمرد ميتافيزيقي وتنتهي بتمرد تاريخي ، ان لحظة التمرد الميتافيزيقي - كما يقول به كامو - في هذه القصة هي احتجاج عيسى على نفسه ، ونفيه لها ، معبرا عن احساسه بالخطيئة - وان كانت هنا لحظة - وبالظلم ، ثم ينتهي هذا التمرد الى تمرد تاريخي : ارتباط بالقوى التي تصنع التطور للانهاضي ..

ان وجودية كامو ترفض التمرد التاريخي ، لانهم يرفضون ، ان التمرد عندهم ليس نغيا مطلقا ولا ايجابيا مطلقا ، ولكنه وسط متوسر ، بين السلب والايجاب ، وان الانسان المتمرد عند كامو ليس هو الذي يؤكد «الوعي» على حساب «العالم» بل هو الوتر المشدود بين الوعي والعالم ! محاولة اخرى لتجميد التناقضات ، لتميعها ، وهذا هو الدور الذي تقوم به اليوم الوجودية والوضعية المنطقية والبرجسونية ، انها فلسفات ضد التطور ، انها تصور مهاوي الازمة التي ينحدر اليها عصر الامبريالية ، وتحاول ان تبقي عالمها المنهار حتى اخر لحظة ، ان الابطال الوجوديين هم مخلوقات معذبة ، رغم انها تحاول ان تلقي على عذابها ستارا من الفلسفة ، مخلوقات عنكبوتية المحتوى ، يصرخ الفراغ والخراب داخلها بشعارات مجرد شعارات عن الحرية والكبرياء واملاك المصير ، كل القيم التي تعمل الوجودية حقيقة على هدمها عندما تسلب من الانسان قوانين التطور وترمي بالخطيئة ، وتحمله صخرة يقضي حياته صاعدا هابطا بها . ثم تقتله ، تميته ، هاربا من الوجود بعد حياة غريبة .. مهزومة .. ضائعة!

ليس هكذا نجيب محفوظ ، وليس هكذا عيسى الصباغ .
لا يجب ان نحكم على نجيب من سطح الوعي ، من خلال كلمات

والفاظ وجمل ومشابهات ضئيلة ..

وليست السمان والخريف هي اول رواية لنجيب تنتهي بدعوة الى التخلص من أزمته .. ان صوت احمد شوكت في «السكرية» دعا كمال الى التخلص من ازمته ، ونهاية « بداية ونهاية » تكشف لحسين انه كان يمكن ان توجد نهاية اخرى .. ولا بد ان تعيد قراءة نجيبيا عزيزي رجاء ..

صلاح عيسى

القاهرة

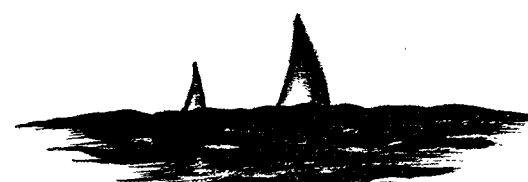
صدر حديثاً
للكاتب جورج حنا

قبل المغيب

طبعة جديدة
الثن ٥٠٠ ق.ل

على ابواب السماء

الثن ٢٠٠ ق.ل



يطلب لغزات الكتابات مع عموم الكتب العربية من الناشر
دار الثقافة ص.ب ٥٣٣٥ تلغراف ٢٣٠٥٦١ بيروت - لبنان ومن عموم
الكتبات في العالم العربي